قراءة نقدية في نظرية النقد الثقافي عند عبد الله الغذامي

▪ أ. طارق بوحـــالة
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة باجي مختار - عنابة

الملخَّـــص:

يعزى معرفة النقد العربي المعاصر لنظرية النقد الثقافي إلى الناقد السعودي ؛ عبد الله الغذامي من خلال كتابه الرائد الموسوم بـ: "النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، الصادر عام 2000. لهذا ستحاول دراستنا الإقتراب من هذا الكتاب ومحاولتها مساءلته مساءلة نقدية وذلك بوضعه تحت مجهر النقد والتحليل. والبحث في مدى تمثله للمقولات الغربية لنظرية النقد الثقافي.

الكلمات المفتاحية: الثقافة، النقد الثقافي، الدراسات الثقافية. النسق الثقافي

Résumé :

Notre étude s'engage dans le but de Suivez les principales caractéristiques dans le projet: Abdullah AL GHADAMMi à traver Son étude intitulée " la critique culturelle, publié en 2000. Particulièrement les Lacunes methodologies qui caractérisent son projet.

Mots clés : Culture.La critique culturelle.Cultural Studies

Abstract:knowledge about contemporary Arabic criticism of the cultural crticism theory is tightly related to the Saoudi critic Abdellah El-Gudhami through his seminal book entitled 'Cultural Criticism: A Reading into Arabic Cultural Patterns', published in 2000. Hence, our study will attempt to get closer from this book in order to question it critically and put it under scrutiny by dint of criticism and analysis. Also, the study will discuss the extent to which this book epitomizes the western views about cultural criticism theory.

Key words: Cultural Criticism, Cultural Studies.Culture

المنارة للاستشارات

مقدمة:

يعد النقد الثقافي نشاطا معرفيا وفكريا من أحدث المجالات المعرفية التي برزت الكتابة حولها في ستينيات القرن الماضي حيث يأخذ هذا النشاط من الثقافة بشموليتها موضوعا لبحثه وحيزا لتفكيره، إذ أصبح لونا معرفيا مستقلا بذاته مع بداية التسعينيات من القرن العشرين، بعدما ظل لمدة يقبع تحت مظلة ما يسمى بـــ: "الدراسات الثقافية".

يظهر ذلك جليا عندما نادى النقاد إلى نقد يتجاوز مقولات البنيوية السائدة المسيطرة على نمط التفكير الغربي لفترة معتبرة من الزمن.

هذا ما دفع به إلى أن يتقاطع مع مجالات معرفية ونقدية مجاورة كان أبرزها: نظرية الأدب وعلم الجمال والتحليلين الفلسفي والنفسي والنظرية الماركسية و التاريخانية الجديدة و الأنتروبولوجيا وعلم الاجتماع وعلم العلامات وغيرها...

كما قطع النقد الثقافي شوطا كبيرا داخل الوعي النقدي الغربي رفقة الدراسات الثقافية، وذلك تزامنا مع التغيرات التي حدثت إثر بروز مقولات ما بعد البنيوية من جهة، ومنجزات ما بعد الحداثة من جهة ثانية، انطلاقا من مجهودات كل من "رولان بارت" و"ميشال فوكو" و"جاك ديريدا" و"ألتوسير"وأصحاب مركز برمنغهام للدراسات الثقافية المعاصرة ببريطانيا.

1-مفهوم النقد الثقافي:

يعرف الأمريكي "أرثر أيزبراجر"النقد الثقافي بأنه «... نشاط وليس مجالا معرفيا خاصا بذاته ... وأن نقاد الثقافة يطبقون المفاهيم والنظريات على

المنارة للاستشارات

الفنون الراقية والثقافة الشعبية والحياة اليومية وعلى حشد من الموضوعات المرتبطة، إن النقد الثقافي كما أعتقد هو مهمة متداخلة مترابطة، متجاوزة متعددة، كما أن نقاد الثقافة يأتون من مجالات مختلفة ويستخدمون أفكارا ومفاهيم متنوعة، وبمقدور النقد الثقافي أن يشمل نظرية الأدب والجمال والنقد وأيضا التفكير الفلسفي وتحليل الوسائط والنقد الثقافي الشعبي، وبمقدوره أيضا أن يفسر نظريات ومجالات علم العلامات، ونظرية التحليل النفسي والنظرية الماركسية والنظرية الاجتماعية و الأنتربولوجية ... الخ، ودراسات الاتصال وبحث في وسائل الإعلام والوسائل الأخرى المتنوعة ...»[1].

يعد النقد الثقافي–حسب أيزابرجر– نشاطا معرفيا منفتحا على جملة من المواضيع والتخصصات المعرفية المجاورة للأدب والنقد أبرزها: التحليل النفسي و النقد الماركسي و علم العلامات وعلم الاجتماع وعلم الأنتربولوجيا وغيرها ... لهذا فالنقاد الثقافيون يأتون إليه من كل هذه المجالات مما يجعل العمل في هذا التخصص يتطلب خبرة ومعرفة كبيرة لأهم ما يحدث داخل هذه العلوم، حيث لا يسمح له أن يتغافل عن كل جديد يحصل فيها.

أما "فنست ليتش"فيجعل من النقد الثقافي مرادفا لمصطلحي ما بعد الحداثة وما بعد البنيوية... [2].

يبدو أن رأي "ليتش" لا يختلف عن رأي "آرثر أيزابرجر" من حيث كون النقد الثقافي نشاطا معرفيا واسعا ومنفتحا على باقي العلوم الإنسانية والاجتماعية، فبمجرد جعله رديفا لمفهومي ما بعد البنيوية وما بعد الحداثة يؤدي ذلك إلى دعوته إلى ردم الحدود الفاصلة بين المعارف والأفكار الواقعة داخل حقل العلوم الإنسانية، وهذا ما ينادي به أصحاب هذين المجالين عبر مؤلفاتهم وأقوالهم المنهجية.

المنارة للاستشارات

أما عبد الله الغذامي فيعتبر النقد الثقافي فرعا من فروع النقد النصوصي العام، ومن ثم فهو أحد علوم اللغة وحقول (الألسنية) معني بنقد الأنساق المضمرة التي ينطوي عليها الخطاب الثقافي بكل تجلياته وأنماطه وصيغه، ما هو غير رسمي وغير مؤسساتي وما هو كذلك سواء بسواء

كما يعتبر الناقد "محسن جاسم الموسوي" أن «النقد الثقافي عبارة عن فاعلية تستعين بالنظريات والمفاهيم والنظم المعرفية لبلوغ ما تأنف المناهج الأدبية المحض من المساس به أو الخوض فيه، إذ كيف يتسنى للناقد الأدبي أن يخوض في المبتذل والعادي والوضيع واليومي والسوقي بعدما تمهر كثيرا في قراءة النصوص المنتقاة والمنتخبة التي يتناقلها نقاد الأدب على مر العصور ... »[3].

يقدم تعريف "الموسوي"دورا جديد اللنقد الثقافي من خلال قراءة موضوعات لطالما غفل عنها النقد الأدبي، الذي كان اهتمامه منصبا على دراسة الجماليات داخل النصوص الأدبية معرضا عن الخطاب المبتذل والعادي والوضيع واليومي والسوقي.

غير أن ما يجب الوقوف عنده في هذا المقام هو ما يتعلق باتهام بعض النقاد –وعلى رأسهم الغذامي- النقد الأدبي بأنه تخلى عن هذه الموضوعات (المبتذل، السوقي...) وركز اهتمامه على جماليات الخطاب، متناسين أن هذه الموضوعات لم تكن مهيمنة على المشهد الثقافي العالمي بالقدر نفسه عبر جل المراحل الزمنية، إذ عرفت رواجا كبيرا في تسعينيات القرن الماضي خاصة بعد انتشار مفاهيم جديدة داخل الثقافة الغربية. وهيمنة الثقافات الفرعية وآداب الأقليات وسيطرة وسائل الإعلام الثقيلة ذات الأبعاد

المنارة للاستشارات

الجماهيرية،الأمر الذي أدى إلى نشوء النقد الثقافي كتخصص يهتم بمثل هذه الموضوعات الجديدة وغيرها .

2- نشأة النقد الثقافي وتطوره

يدعو الحديث عن نشأة النقد الثقافي في البيئة الغربية إلى الحديث عن مرحلة تبلوره كتوجه ونشاط نقدي خاصة بعدما ازدهرت الدراسات الثقافية التي تسعى إلى تقويض مركزية المعتمد الأدبي الرسمي، ذو الأبعاد الجمالية والالتفات إلى قضايا ومجالات ثقافية هامشية تتعلق بالحياة اليومية وما ينتج داخلها من سلوكيات وثقافات.

يعتبر النقد الثقافي من إفرازات الفترة الزمنية التي جاءت عقب أفول نجم البنيوية وعلو أصوات فكرية تنادي بما بعد البنيوية من جهة وما بعد الحداثة من جهة ثانية، وهي الأصوات التي نادت بأنه آن الأوان لأفول نجم البنيوية وشعاعها و التي اعتبرها جل النقاد الذين عاشوا زمنا معتبرا تحت مظلتها المعرفية قد غالت في أفكارها.

هذا ما جعل مقولاتها ومناهجها التي طالما جعلت الدراسة الأدبية تتصف بالانغلاق تعلن عجزها المنهجي، إذن فقد حان الوقت إلى تغير وجهة هذه الدراسة من –دراسة –النص الأدبي المنغلق على نفسه إلى الاهتمام بأطراف أخرى يأتي على رأسها القارئ.

وفي هذا السياق التاريخي أيضا عرفت اتجاهات جديدة النور والتي بدورها انطوت تحت خيمة ما بعد البنيوية مثل: السيميائية و التفكيكية و نظرية القراءة وجماليات التلقي وغيرها.

المنارة للاستشارات

كما عرفت هذه الفترة تفاعلات بين الثقافات الأوربية خاصة بين الثقافتين الفرنسية والألمانية هذا التفاعل الذي لم يكن سطحيا إنما كان جدلا عميقا، سرعان ما انتشر في البيئة المعرفية الغربية – الأوربية –طوال سبعينيات وثمانينات القرن الماضي « وميزة هذا الجدل أن طابعه العام كان ثقافيا، أو ما يهدف إلى إعادة النظر بوظيفة النقد التقليدية، وطرح موضوعات لها حساسيات ثقافية، كالنقد النسوي، وأدب الأقليات، وآداب ما بعد الاستعمار، ومن بين ذلك نقد ثقافة الميديا (media) وهي ثقافة وسائل الإعلام التي تقوم بإنتاج ثقافات سريعة ومتنوعة ... ومثيرة تعيد صوغ الأذواق والحاجات بهدف خلق مماثلة بين المتلقي ونمط الإنتاج ...» [(4)].

يمكن القول بأن النقد الثقافي قد وجد التربة المعرفية المناسبة في هذا السياق الزمني والفكري الذي حدث في العالم الغربي أين أنتج ذلك مناخا جديدا في النقد يهتم النقاد والدارسون المنتمون إليه (المناخ الجديد) بموضوعات تعد جديدة من صميم الحياة الغربية الجديدة تتعلق بالدرجة الأولى بما يخص: الجوانب الهامشية في الثقافات الأوربية مما خلق من ذلك منظومة اصطلاحية جديدة: أدب الأقليات والنقد النسوي والآداب ما بعد الكولونيالية و وسائل الإعلام الجماهيرية ...

وتعد البيئة الأمريكية على وجه الخصوص مرتعا خصبا عرف النقد الثقافي فيه تطورا ملحوظا في مدرجات الجامعة على يد مجموعة هامة من النقاد على رأسهم "كلنر" و"بودريار" و"فنست ليتش" و"إدوارد سعيد".

و يرجع تطور مجال النقد الثقافي في الولايات المتحدة الأمريكية إلى بنية و طبيعة المجتمع هناك إذ يلاحظ تمازج الثقافات الفرعية التي تسهم بدورها في بلورة مطالب الأقليات المتعددة في هذا البلد القارة.

المنارة للاستشارات

و يعود هذا التطور إلى ارتكاز النقد الثقافي في الولايات المتحدة الأمريكية على مجموعة من الأسس المعرفية كان أهمها منجزات مفكري ما بعد البنيوية خاصة ما قدمته التفكيكية عن طريق أعمال جاك ديريدا .

وقد أسهم جملة من المفكرين في إثراء النقد الثقافي في الولايات المتحدة الأمريكية على رأسهم "ميشال فوكو والتوسير و جاك ديردا و بودريار" الذين شرحوا ما بعد الحداثة « التي تحاول طمس الحدود بين الفن و الحياة اليومية و إزالة التسلسل الهرمي بين الراقي والجماهيري...كما تفضل المحاكاة الساخرة و الهزل و المزاح »[(5)].

لذلك كان هدف ما بعد الحداثة تقويض الخطاب الثقافي والفكري المركزي الأوربي الذّي لا يعترف بالآخر مهما كان نوعه ولا يؤمن بالأقليّات وتعدد الثقافات وتعايشها، هذا الخطاب الذي كان بمثابة بيان الحداثة في أوربا والتي فقدت وعودها الثقة من قبل الجماهير العريضة التي لم تعد عليهم إلا بالتهميش وعدم تلبية متطلباتهم، فلم يعودوا يؤمنون بمنجزات الحداثة التي خلقت وراءها تميزا عنصريا من جهة واستعمارا من جهة ثانية ونظاما رأسماليا من جهة ثالثة.

أما عن مظاهر ما بعد الحداثة فقد توزعت على جملة من العلوم والمجالات المعرفيّة والثقافيّة والاجتماعيّة وحتى في الحياة اليوميّة إذ اختلفت في معاملتها لهذه المجالات وغيرها عما كان سائدا في أيام الحداثة

بعد هذه الإطلالة المتعلقة بنشاط النقد الثقافي في سياقه الغربي سنحاول أن نغير عدسة البحث إلى واقع هذا النشاط النقدي داخل الخطاب النقدي العربي المعاصر مركزين على عمل الناقد السعودي : **عبد الله الغذامي** الذي يحمل عنوان : **النقد الثقافي ، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، الصادر**

المنارة للاستشارات

عام2000 م كونه العمل النقدي الأول الذي تبنى النقد الثقافي في النقد العربي المعاصر.

2-نظرية النقد الثقافي عند عبد الله الغذامي

تعد شخصية الغذامي من أبرز الشخصيات الثقافية العربية إثارة للجدل منذ أن صدر له أول كتاب وحمل عنوان:" الخطيئة والتكفير (من البنيوية إلى التشريحية)" عام 1985م؛ حيث أثار هذا الكتاب نقاشا محتدما في أوساط النقاد والدارسين العرب آنذاكبين مؤيد لما جاء به الغذامي من أفكار متعلقة بالتفكيكية أو السميائية و بين معارض لذلك.

وصار الغذامي منذ ذلك الزمن علامة نقدية وشخصية ثقافية فارقة في الساحة العربية حيث كان في كل مرة يطلع على قرائه بكتب ومواضيع جديدة غير أن من أبرز كتبه التي جددت الجدل هو الذي حمل عنوان: "النقد الثقافي (قراءة في الأنساق الثقافية العربية)" الصادر عام 2000م.

وقد تبنى فيه عبد الله الغذامي هذه النظرية الغربية في النقد الثقافي ليحاول إسقاطها على نصوص شعرية عربية يقرأ من خلالها جملة من الأنساق الثقافية التي تتحكم في شخصيتنا وذواتنا كما يقول: « إذ تعد المحاولة العربية الأولى لتبني هذا النقد بمفهومه الغربي بطريقة مباشرة ويمثل هذا العمل مسعى جادا لاكتشاف الإشكالات العميقة الموجودة في الثقافة العربية من خلال توظيف لأدوات النقد الثقافي »(6).

هذا ما جعل مشروع الغذامي دعوة صريحة لتبني النقد الثقافي كممارسة نقدية من أجل قراءة الأنساق الثقافية من خلال قراءة النص الشعري العربي

المنارة للاستشارات

عن طريق تجاوز النقد الجمالي الذي يحتفي باللغة من حيث جماليتها، في حين أننا نرث من خلاله عيوبا نسقية كبيرة.

بعد هذه النظرة العامة لعمل الغذامي سنحاول أن نتحدث في هذا المحور عن عنصرين مهمين الأول يتعلق بإيجابيات مشروعه والثاني يلخص أهم الثغرات المنهجية التي اتسم بها.

1- الإيجابيات

ما يميز مشروع النقد الثقافي الذي طرحه الغذامي هو ما اتّصف به من جرأة قلّما نجدها عند نقاد آخرين وهي ظاهرة صحية، إذ إننا في أمس الحاجة إلى مثل هذا النوع من الأطروحات سيما والمجتمع العربي يعيش رهانات جد صعبة في عالم أصبح قرية صغيرة واحدة تلاشت من خلالها الحدود الفكرية والمعرفية والثقافية و أضحت الهيمنة الغربية هي عنوان وسمة هذا العصر.

أمام كل هذا كان لمشروع النقد الثقافي أهمية كبيرة فهو يشجع ناقديه على الانخراط في ممارسة النقد الثقافي نفسه وهو باعث على الحوار والجدل وليس على السجال وهو أيضا مشروع يصحح علاقتنا بالماضي من خلال نقده وتحديد أنساق القيم الخادعة المختبئة في ثقافتنا وحياتنا والعمل على تفكيك عراها وأواصرها تمهيدا لتغيرها ... (7).

يمكن لنا أن نعترف بجدية طرح عبد الله الغذامي وقيمته ، من خلال بروز دعوته إلى إعادة قراءة الخطاب الشعري العربي قراءة ثقافية تركز على النسق المختبئ وراء هذا الخطاب ،الذي ورث الذات العربية عيوبا كثيرة مثل: الاستعلاء وتهميش الآخر التسلطية وعدم محاورته وغيرها.

المنارة للاستشارات

كما يرى الناقد المغربي "سعيد يقطين" أن طرح عبد الله الغذامي رغم ما يلاقيه من اختلاف ومجابهة ونقد من قبل الآخرين إلا أنه «يحقق غايتين كبيرتين:

- تتمثل أولاهما في المساهمة في تطوير فكرنا الأدبي والنقدي ودفعه إلى التفكير والبحثبدل الاستسلام لجاهز الرؤيات والتصورات التي هيمنت أمدا طويلا من الدهر في النظر والعمل.
- وتبرز أخراهما في تقديم معرفة جديدة وإنتاج خطاب جديد بصدد الأدب والمعنى والقراءة وما يتصل بمجمل هذه القضايا الأدبية والاجتماعية وأبعادها الثقافية والاجتماعية »(8).

يستنتج مما عرضناه سابقا أن مشروع النقد الثقافي الذي طرحه الغذامي تكمن أهميته في نقطتين:

أ/ يدعو إلى تصحيح علاقة الفرد العربي مع ماضيه عن طريق إعادة قراءة الخطاب التراثي –لا سيما الشعري– قراءة صحيحة بعيدة عن كل أنواع الارتجال والترهل وحسب رأي صاحبه (الغذامي) فلن يكون ذلك يسيرا إلا إذا سلك النقاد أثناء قراءتهم طريق القراءة الثقافية المنهجية والموضوعية.

ب/ يدعو إلى مراجعة كثير من أسئلة النقد العربي المعاصر إزاء قضايانا الفكرية والثقافية والنقدية والأدبية، فهو يعتبر أن سمة النقد حاليا هو انعزاله التام عما يجري في واقع الفرد العربيوالاكتفاء بممارسته داخل مدرجات الجامعة وبين طيات الكتب.

كما يدعو مشروع الغذامي النقاد والدارسين إلى أخذ يد المسؤولية الكاملة لقراءة ما يجري أمامهم من تحولات ووقائع إذ « يثير إشكالية نظرية وثقافية

المنارة للاستشارات

مطروحة على الدراسات النقدية والثقافية الحديثة ويتعلق بمسؤولية الناقد اتجاه ما يقرأ واتجاه ما يحدث في عالمه من جهة وبكيفية قراءة النصوص الأدبية والثقافية بالأهداف والغايات التي يرمي إليها القارئ من وراء قراءته »[9].

إذ يسعى صاحبه من خلال طرحه هذا إلى البحث في قبحيات الخطاب الشعري بدل أن يبحث في جمالياته حيث يرجع هذه الدعوة عن انشغال النقد الأدبي بموضوعات تقليدية وإغفاله لما هو هام في الخطاب الشعري فهو « يريد أن يقوم النقد الثقافي بوظيفة فك الارتباط بين المؤثر والمتأثر بين سلبية الأثر الذي تركه الشعر والشخصية العربية ومن خلال ذلك يقرر بأن الوظيفة التقليدية للنقد كرست تلك العلاقة، كرستها لأنها شغلت فقط بالأبعاد الجمالية ...» [10].

رغم ما وقع فيه مشروع الغذامي من ثغرات منهجية إلا أن جرأته في ما دعا إليه مهمة في بلورة خطاب نقدي جديد يتماشى مع معطيات الحياة الاجتماعية والسياسية وحتى الاقتصادية الجديدة.

ولسنا ممن يدعون إلى أن يقتصر النقد الثقافي في وطننا العربي على قراءة الشعر والأنساق الثقافية داخله، فوظيفته أكبر من ذلك لأن موضوعاته أوسع حيث يجدر به أن يدرس موضوعات تتعلق بالمهمش والمسكوت عنه في النقد الأدبي و لعل أبرز هذه الموضوعات ما تعلق بـــ «المؤسسة ونظام الإشارة والإيديولوجية والجنوسة والهوية والقضية الاجتماعية والآخر هذه المفاهيم الاستثنائية بل المتواشجة باتت تجهز المصطلحات الضرورية التي يجب أن تناقش في إطار النصية...» [11].

المنارة للاستشارات

2- الثغرات المنهجية

يسعى الغذامي من خلال مشروعه الموسوم بـــ " النقد الثقافي" إلى قراءة الأنساق الثقافية داخل منظومة شعرية اختارها بعناية سعيا منه للبرهنة عن فرضية في الكشف عن عيوب الذات العربية التي طالما اختزنها الشعر العربي داخله.

غير أن الحظ لم يحالفه بقدر كبير أثناء هذه الممارسة النقدية مما جعله يقع في جملة من الثغرات المنهجية حيث سرعان ما لقيت- هذه الممارسة- وسنحاول أن نجمل هذه الثغرات في أربعة عناصر هي:

التعميم والانتقائية والاستقراء الناقص والمبالغة ومحدودية النظرة وانغلاقها.

أ/ التعميم والانتقائية

ما يلاحظ على ممارسة الغذامي "النقد الثقافي" وقوعه في كثير من التعميم والانتقائية، حيث نجده لا يتوانى في إطلاق جملة الأحكام وتعميمها دون وجه حق إذ تلمح هذه الظاهرة تتكرر عبر محطات عديدة مما جعل كتابه يتصف بـــ «الكثير من التعميم القائم على تغييب الكثير من النماذج الشعرية التي تخالف النسق الذي يرسمه الشعراء الرسميين (المنافقين) في تاريخ الثقافة العربية كالشعراء الصعاليك والمتصوفة وشعراء مثل أبو نواس وابن الرومي وأبو العتاهية...» (12).

فهو يختار صورا شعرية ومجموعة من الشعراء ويحاول من خلالها أن يعمم أحكامه بعد أن يقرأها -حسب رأيه قراءة ثقافية- على كل الثقافة

المنارة للاستشارات

العربية وأبرز مثال على ذلك ما سرده عن شعراء أمثال المتنبي وأبي تمام وغيرهم من الشعراء الذين أسهموا في بلورة نسق يخدم السلطة.

و نجده يغفل في هذا المقام النماذج العديدة التي عارضت هذا النسق وعلى رأسها الشعراء الصعاليك الذين كشفت...القراءة الثقافية الفاحصة لنصوصهم الشعرية عن ثنائيات ضدية مؤسسة على الصراع بين المركزي الذي تمثله القبيلة أو المجتمع الجاهلي بأعرافه وقوانينه، والهامشي كما يبدو في ظاهرة الصعلكة التي كانت تشكل خطابا في المعارضة من خلال احتجاجها على الممارسات السلطوية التي تنفذها القبيلة ... [13].

ويودي هذا إلى اعتبار ظاهرة التعميم والانتقائية عند عبد الله الغدامي خللا منهجيا جسيما إذ لن نستطيع أن نختزل حراكا اجتماعيا وثقافيا لأمة كبيرة وعبر زمن طويل في بعض النماذج الشعرية القليلة والمنتقاة وذلك من أجل البرهنة على طرح نقدي معين، أو إثبات حكم بدعوى البحث عن الأنساق الثقافية المخاتلة داخل هذه النماذج الشعرية وإرجاع كل مصائبنا الثقافية إليها.

يضاف إلى ذلك أن قنوات الثقافة العربية ليست حكرا على الشعر فقط بل تتعداه إلى غيره من الفنون والمعارف الأخرى لأن الأمة العربية لم يقتصر إنتاجها المعرفي على مجرد قصائد شعرية بل تعدى إلى النثر سواء كانت سردا أو خطابة أو رسائل أو إلى العلوم والفلسفة والتاريخ والمنطق وغيرها.

كما ... أنّ الشعر العربي ليس وثيقة شاملة وحجة واضحة للتاريخ، بل إن التاريخ هو الذي يصلح لأن يكون وثيقة للشعر باعتباره خلفية سياقية... [14].

المنارة للاستشارات

يبدو لنا أن الغذامي قد وقع فيما وقع فيه بعض النقاد ممن سبقوه في المشكلة نفسها وأبرز مثال على ذلك طه حسين وما وقع فيه من تعميم في كتابه النقدي المثير للجدل "في الشعر الجاهلي" الذي صدر عام 1926.

ب/ الاستقراء الناقص

يعد الاستقراء من أهم المعايير والأدوات المنهجية التي يعتمد عليها الباحث عن الحقيقة العلمية وهو أنواع:

- **الاستقراء التام**

وهو الذي « يحصي كل الأمثلة في مقدمات تنتهي بنا إلى نتيجة عامة تندرج تحتها كل تلك الأمثلة...» (15).

ويعد هذا النوع من أصعب الأنواع لأنه يحيط بكل جزئيات الظاهرة فيتطلب خبرة ودربة وصبر من قبل الباحثين.

- **الاستقراء الناقص**

حيث « لا يحصي في مقدماته كل أمثلة الظاهرة موضوع البحث، إنما يقتصر على عدد منها، ويتضمن أن ما ينطلق على ذلك العدد من الأمثلة ينطبق كذلك على الأمثلة التي لم تكن في متناولنا »(16).

ما يلمح على هذا النوع من الاستقراء هو كثرته عند الباحثين والدارسين العرب –خاصة– كونهم ينطلقون في عملية استقرائهم للظواهر من جزئية أو جزئيتين ليعمموا نتائجها على كل الظواهر التي تشبهها.

لهذا سيكون تحليلنا منصبا على هذا النوع ومدى وجوده عند الغذامي من خلال عمله –محل الدراسة– فعندما يصرح في أحد مواضع كتابه قائلا: «

المنارة للاستشارات

ولدت الخطابة لا لتؤسس نسقا جديدا وإنما لتقوم بالدور الذي كان يقوم به الشعر ونجد تحديدا دقيقا لدور الخطيب يحصر المهمة في إسكات الآخرين وهذا ما يقوله أبو عمر بن العلاء، كما ينقل الجاحظ لذا نرى المروي لنا من الخطب يقوم على المفاخرة و المباهلة ونلاحظ أن وفود القبائل كانت تأتي بشاعر أو خطيب وليس يختلف كلام واحد منهما عن الآخر إلا من حيث الوزن الذي يختص بـــه الشعر »(17).

يتجسد الاستقراء الناقص من خلال هذا القول في الجزئية التي تخص دور الخطيب الذي جعله الغذامي لا يختلف عن دور الشاعر وهذا حكم ناقص من حيث قيمته ومدى صحته، إذ إن الخطيب ليس شاعرا ودوره يتجاوز الإسكات للآخرين وأبرز مثال على ذلك أنه «كان للخطابة في العصر الجاهلي شأن عظيم، إذ كانوا يستخدمونها في منافراتهم ومفاخراتهم، وفي النصح والإرشاد وفي الحث على الأعداء وفي الدعوة إلى السلم وحقن الدماء، وفي مناسبتهم الاجتماعية المختلفة كالزواج و الإصهار إلى الأشراف ...» (18).

من خلال هذا الشاهد يستلزم أن عبد الله الغذامي قد وقع في الاستقراء الناقص لأنه أصدر حكما دون أن يحصي أهم جزئيات الظاهرة الذي هو بصدد دراستها حيث انطلق في ذلك من نصف مقولة نقلها عن الجاحظ الذي بدروه نقلها عن عمرو بن العلاء.

كما يلمح شاهد آخر على وقوع عبد الغذامي في الاستقراء الناقص، وذلك عندما أراد أن ينقل تعريف ابن المقفع للبلاغة والتي تعد حسب رأي الغذامي أنها: « تصوير الحق في صورة الباطل »(19) وقد نقله هو بدوره الغذامي عن كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري.

المنارة للاستشارات

وما يثبت أن الغذامي قد وقع في الاستقراء الناقص، هو ما وجدناه عند ابن رشيق في كتابه "العمدة"فيما يخص تعريف ابن المقفع للبلاغة حيث يورد ابن رشيق ذلك بقوله: « سئل ابن المقفع: ما البلاغة ؟ فقال اسم لمعان تجري في وجوه كثيرة فمنها ما يكون في السكوت ومنها ما يكون في الاستماع ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون شعرا ومنها ما يكون سجعا، ومنها ما يكون في الاحتجاج ومنها ما يكون خطبا ومنها ما يكون رسائل فعامة هذه الأبواب الوحي فيها والإشارة إلى المعنى والإيجاز هي البلاغة »[20].

يجد المتأمل للتعريفين اختلافا كبيرا واختزال الغذامي لتعريف البلاغة في قول مجتث من سياقه ومفرغ من دلالته الحقيقية وذلك بغية البرهنة على مركزية النسق الثقافي في صناعة الخطاب الأدبي والثقافي عند العرب منذ القديم.

ج/المبالغة

يرتكز البحث العلمي في مجمله على الموضوعية ويبتعد كل البعد عن كل أشكال وصفات التعميم والانتقاء والتناقض والمبالغة.

وكما سلف ذكره فما يميز مشروع الغذامي –رغم جدته وجرأته في الآن نفسه– فقد وقع في أخطاء بحثية وثغرات منهجية ذكرنا بعضها سالفا وأما عن الثغرة التي نود معالجتها هنا فهو ما يخص "المبالغة" حيث نجد هذه الصفة في مواضع كثيرة من كتاب النقد الثقافي لدى الغذامي، فمثلا يعرض أحد النقاد حكمه حول « أن المنصور قتل أبا مسلم الخرساني لأنه يغار منه أو أن السفاح استند في جرائمه التاريخية على قصائد المدح »[21]، بأنه أبرز مظاهر المبالغة غير العلمية وقد نذهب معه في هذا الطرح كون حكم الغذامي

المنارة للاستشارات

لا مبالغ فيه إذ ما نظرنا إلى أن السفاح (العباسي) رجل وصل إلى سدة الحكم لرغبة في نفسه وفي ما والاه من العباسيين للقضاء على بني أمية وتسلم الحكم من يعدهم ولا دخل لشعر المدح في ذلك رغم أنه كان محبوبا من قبل الملوك والأمراء إلا أنه لن يكون هو الدافع الأول والأوحد من أجل ارتكاب الجرائم التاريخية كما يعتقد الغذامي.

كما تتجسد ملامح المبالغة في موضع آخر وذلك عند ما يسلم بأن « لا ترى فرقا بين الشعر والنثر، ولا بين شعر وشعر أو بين عصر وعصر، منذ امرئ القيس إلى أدونيس ونزار قباني، ومن سجع الكهان إلى عصر الحضارة العباسية، بل الحديثة كشعر أحمد شوقي مثلا ...» (22).

يعد هذا الحكم النقدي قمة المبالغة عند الغذامي إذ كيف لعاقل أن يقول بتطابق الشعر والنثر وبين عصر وعصر أو بين شاعر جاهلي وشاعر حداثي ومعاصر حتى وإن كان كل هؤلاء قاموا بتثبيت نسق ثقافي معين فذلك لا يدعو إلى اعتبارهم متشابهين ومتطابقين لا من حيث المنشأ ولا من حيث ما يصدرونه من خطاب.

ويصرح الغذامي في موضع آخر قائلا: « القيم الشعرية هي قيم في البغي والاستكبار والفخر بالأصل القبلي وهذا يرتبط بالغزو والشعر لا بد أن يمجد وأن يخلد هذه المعاني وهذه هي الحال منذ عمرو بن كلثوم المتباهي بالظلم والتسلط إلى زهير بن أبي سلمى »(23).

يبالغ الغذامي في هذا القول إذ إنه يعزل موقف الشعراء في العصر الجاهلي عن سياقه التاريخي فإذا كان عمر بن كلثوم يتباهى فتلك سمة من سمات العصر الجاهلي حيث البقاء للأقوى، قد يتحول فيها الظلم إلى قيمة نبيلة ومحبوبة.

المنارة للاستشارات

د/ محدودية النظرة وانغلاقها

مما يلاحظ على عمل عبد الله الغذامي هو اتصاف بعض مواضعه بأحادية النظرة وانغلاقها ويتجسد ذلك من خلال وجهين:

أما عن الوجه الأول : فهو عزل الغذامي للنص الشعري عن باقي مكونات الثقافة إلا في – بعض المواضع– بمعنى آخر فقد حاول الغذامي أن يحصر حديثه عن الخطاب الشعري وعدم تخصيصه قدرا كافيا للحديث عن النثر والفلسفة والتاريخ وغيرها.

الوجه الثاني: عزل الثقافة العربية عن غيرها من الثقافات التي كانت تجري مجراها أبرزها الثقافة الفارسية وبدرجة أقل الثقافة الرومانية واليونانية حيث إنه « لم يقم باستحضار التجارب الثقافية لمجتمعات مختلفة أو حضارات متباينة »[(24)].

ويبدو أن الغذامي كان واعيا بذلك فليس بالأمر الهين أن لا يكون على علم أن الشعر والثقافة العربيين كانا يتفاعلان مع غيرهما من الحضارات المجاورة على الأقل خاصة مع مجيء الإسلام وانفتاح العرب المسلمين واحتكاكهم بغيرهم من الأمم والشعوب الوافدة على الدين الجديد خاصة.

فكيف لناقد ثقافي يدعي لنفسه ذلك من إغفال مثل هذا الأمر المهم، وهو عنصر التفاعل و المثاقفة وهو عنصر بارز وضروري في الدراسات الثقافية.

وأبرز شاهد على هذا التجاهل للثقافات الأخرى ومدى دورها ولو بقليل في صناعة الأنساق الثقافية التي يختزنها الخطاب الادبي عموما والسردي على وجه خاص هو حديث الغذامي عن واد عبقر وشياطين الشعر لدى

المنارة للاستشارات

الشعراء العرب حيث جعلها حكرا على هؤلاء الشعراء وليس ذلك بغية الإفتخار بهم وإنما من أجل إثبات ما يرمي إليه في مشروعه وهو كشف عيوب و قبحيات الخطاب الثقافي العربي لا سيما الشعر منها، فيقول:« هؤلاء هم من اصطفتهم الثقافة لتسكنهم في مكان مجازي لأنهم أرقى من أن يعيشوا كسائر البشر فاخترعت لهم (عبقر) كمكان متعال و خاصكما جعلت مصادر إلهامهم مصادر فوق بشرية وجعلت لكل واحد منهم شيطانا يلهمه ويسير معه وقد عقد أبو زيد القرشي باب لهذا في كتابه جمهرة أشعار العرب »(25).

إذا تمت موافقة الغذامي فيما ذهب إليه حول أهمية واد عبقر في صياغة ما أطلق عليه الشعرنة التي تسربت إلى الخطاب والذات العربيين، فماذا نقول إزاء ما لليونان والرومان من ربات شعر وملهمات الشعراء.

الخاتمة

لقد حاولت هذه الدراسة أن تضع نظرية النقد الثقافي عند عبد الله الغذامي تحت مجهر الدراسة والتحليل من أجل الوقوف عند درجة استغلاله لمقولات هذه النظرية ومدى تطبيقه لها في عمله النقدي _ محل الدراسة_ ومما يلاحظ على ممارسته التطبيقية هو تركيزها على موضوع الأنساق الثقافية ومدى تغلغلها داخل الذات العربية ، حيث يرجع الغذامي بالدرجة الأولى هذا التغلغل إلى الشعر والشعراء .

فحسب رأيه يعد الشعراء الذين طالما احتفينا بهم وطربنا لشعرهم هم المسؤولون الأوائل على تفشي هذه الأنساق الثقافية ذات المحتوى السلبي داخل المنظومة الاجتماعية إلى حد تسللها إلى الخطاب العقلاني والفكري كالفلسفة والعلوم وغيرها،هذا الخطاب الذي ناله ما نال الشخصية العربية وقد

المنارة للاستشارات

بالغ الغذامي في هذا الرأي حيث لا نستطيع أن نجعل من الخطاب الشعري هو المسؤول الوحيد في تشكيل ذواتنا وخطاباتنا العقلية والفكرية لأن الثقافة العربية ليست مجرد نصوص شعرية فهي مزيج من العلوم والمعارف والآداب والفنون، وكل هذه المصادر المعرفية تؤثر في الذات العربية وتكون شخصيتها من جهة وتصنع أنساقها الثقافية المتداولة ومن جهة ثانية لا نستطيع أن نعد الشعراء _ خاصة المشهورين منهم_ سببا أساسيا في خلق وغرس الأنساق الثقافية داخل الذات العربية و شعرنتها.

و رغم كل ماذكرناه عما اتصف به عمل الغذامي من إيجابيات و ثغرات منهجية، و قد يرى القارئ لمقالنا أننا قد غالينا في بعض المواقف المتعلقة بهذه الثغرات ،إلا أن هذا العمل يكفيه كونه الأول الذي يتبنى صراحة نظرية النقد الثقافي كما عند الغرب و يحاول تطبيقها على الشعر العربي القديم ، و هذه في حد ذاتها نقطة تحسب للناقد.

الهوامش

[1]- آرثر أيزابرجر: النقد الثقافي ترجمة : رمضان بسطا يسى ووفاء إبراهيم ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ط ،2005 ص 30-31.

[2]- عبد الله الغذامي: النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط3، 2005، ص 31.

[3]- محسن جاسم الموسوي:النظرية والنقد الثقافي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،بيروت، ط1، 2005، ص 12.

[4]- عبد الله إبراهيم: المطابقة والاختلاف (بحث في نقد المركزيّات الثقافية)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2004، ص 537.

[5]- آرثر أيزابرجر: النقد الثقافي، ص 63.

[6]- فيصل الأحمر: دائرة معرفية حداثية، دار الأوطان للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2005، ج2، ص 452.

المنارة للاستشارات

7- حسين السماهيجي و أخرون : عبد الله الغذامي والممارسة النقدية والثقافية المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، بيروت ط2003،1 ص 64.

8- كتاب الرياض (97-98)، الغذامي الناقد، تحرير وتقديم عبد الرحمن بن اسماعيل، ديسمبر 2001، جانفي 2002، ص 169.

9- حسين السماهيجي وآخرون: عبد الله الغذامي و الممارسة النقدية و الثقافية ، ص 102-103.

10- عبد الله إبراهيم: المطابقة والاختلاف، ص 535.

11- يوسف عليمات: النسق الثقافي عالم الكتب الحديث ، إربد ، الأردن ، ط1 2009، ص 165.

12- سعد البازعي، و ميجان الرويلي: دليل الناقد الأدبي ، ص 310.

13- يوسف عليمات: النسق الثقافي، ص 125.

14- ناظم عودة تكوين النظرية في الفكر الإسلامي و الفكر المعاصر العربي ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت ، ط1 ،2009 ص 368.

15- محمود فهمي زيدان: الاستقراء والمجتمع العلمي، دار الوفاء، الإسكندرية، مصر، ط1، 2002، ص 35-36.

16- المرجع نفسه، ص 56.

17- الغذامي: النقد الثقافي، ص 102-103.

18- شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف، مصر، ط5، دت، ص 27.

19- الغذامي: النقد الثقافي، ص 111.

20- ابن رشيق: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق: محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، لبنان، ج1، ط5، 1981، ص 234.

21- محمود خليل:النقد الأدبي الحديث من المحاكاة إلى التفكيك، دار المسيرة للنشر و التوزيع، الأردن ، ط1 ، 2003، ص 245.

22- الغذامي: النقد الثقافي، ص 109.

23- المصدر السابق، ص 102.

24- سعد البازعي وميجان الرويلي: دليل الناقد الأدبي المركز الثقافي العربي بيروت ، الدار البيضاء ، ط4 ، 2005 ، ص 310.

25- الغذامي: النقد الثقافي، ص 131.

المنارة للاستشارات